

الأخلاق عند ديكارت

Descartes' Ethics

دهبية أمرار¹، سليمة قايد²¹ جامعة الجزائر 2 ، dahbiatabet@gmail.com² المدرسة العليا للأساتذة- بوزريعة، salima.gaid@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2026/07/05 تاريخ القبول: 2026/09/06 تاريخ النشر: 2026/10/01

ملخص:

ترتكز الأخلاق عند رنيه ديكارت على العقل باعتباره المُرشد الأساسي لسلوك الإنسان. ويرى ديكارت أن الفضيلة الحقيقية تتحقق عندما يُسيطر العقل على الأهواء والانفعالات، فيُوجه الإنسان نحو الخير والاعتدال. ولأن الوصول إلى الحقيقة يحتاج إلى وقت، وضع ديكارت ما سماه "الأخلاق المؤقتة"، وهي مجموعة من القواعد العملية تُساعد الإنسان على العيش باستقامة أثناء البحث الفلسفي. ومن أهم هذه القواعد: احترام قوانين المجتمع وعاداته، والثبات على القرارات بعد اتخاذها، والسعي إلى تغيير النفس بدل محاولة تغيير العالم، والعمل على تنمية العقل واكتساب المعرفة. كما اعتبر أن السعادة لا تعتمد على الثروة أو الشهرة، بل على راحة الضمير وحُسن استعمال الإرادة وفق ما يُمليه العقل. لذلك ترتبط الأخلاق عند ديكارت بالحرية والمسؤولية، حيث يكون الإنسان فاضلاً عندما يختار أفعاله بعقل وحكمة، ويضبط رغباته وانفعالاته بما يُحقق الخير له وللآخرين. وتنبع أهمية هذا الموضوع في كونه يُسلط الضوء على جانب غالباً ما يحظى باهتمام أقل مقارنةً بالجوانب الأخرى في فلسفة ديكارت، رغم أنه يُمثل الثمرة العملية لمشروعه الفلسفي ككل.

كلمات مفتاحية: العقل، الإرادة، الأخلاق، الفضيلة والسعادة.

Abstract:

The ethics of René Descartes are based on reason as the primary guide for human behavior. Descartes believed that true virtue is achieved when reason controls passions and emotions, directing people toward goodness and moderation. Since discovering the truth takes time, he proposed what he called "provisional morality", as set of practical rules that help individuals live morally while pursuing philosophical inquiry. These rules include respecting the laws and customs of society, remaining firm in one's decisions after making them, seeking to change oneself rather than the world, and developing the mind through knowledge and learning. Descartes also argued that happiness does not depend on wealth or fame, but on peace of mind and the proper use of free will according to reason. Therefore, ethics in Descartes' philosophy are closely connected to freedom and responsibility. A person becomes virtuous by making rational choices, controlling desires and emotions, and acting wisely for the benefit of both themselves and others.

The importance of this topic lies in the fact that it sheds light on an aspect often receiving less attention than others in Descartes' philosophy, even though it represents the practical fruit of his philosophical project as a whole.

Keywords: Reason, Will, Morality, Virtue, happiness

*المؤلف المرسل: ذهبية أماروسليمة قايد

1. مقدمة

يُعد رنيه ديكارت (1596- 1650 م) أحد أبرز فلاسفة العصر الحديث، إذ ارتبط اسمه بتأسيس فلسفة عقلية أسهمت في إحداث تحول جذري في منهج التفكير الفلسفي والعلمي، من خلال تأسيسها لمبدأ الشك المنهجي، وإعلائها من شأن العقل، باعتباره المصدر الأساسي للمعرفة اليقينية. وعلى الرغم من أن ديكارت اشتهر أساساً بنظريته في المعرفة وبالميتافيزيقا، فإن الجانب الأخلاقي في فلسفته، لا يقل أهمية عن الجوانب الأخرى، بل يُشكل امتداداً طبيعياً لمشروعه الفلسفي، الذي سعى من خلاله إلى بناء معرفة عقلانية يقينية، تُؤدي إلى حياة إنسانية أفضل.

لقد نظر ديكارت إلى الأخلاق بوصفها الغاية النهائية للفلسفة، ورأى أن جميع العلوم والمعارف ينبغي أن تفضي في النهاية إلى توجيه السلوك الإنساني نحو الخير والسعادة. وقد تميزت فلسفته الأخلاقية بمُحاولة التوفيق بين العقل والإرادة، وبين الحرية والمسؤولية، وبين المعرفة والعمل. كما سعى إلى تأسيس أخلاق عقلانية تقوم على وُضوح الأفكار وتمييزها، وعلى قُدرة الإنسان على التحكم في أهوائه وانفعالاته بواسطة العقل.

وتهدف هذه الدراسة إلى تحليل مفهوم الأخلاق عند ديكارت، وبيان أسسها العقلانية النظرية، ومناقشة أهم المبادئ التي تقوم عليها، مع إبراز مكانتها في النسق الفلسفي الديكارتي، وتقييم إسهامها في تطوُّر الفكر الأخلاقي الحديث. وعليه تكون إشكالية بحثنا كالتالي: إلى أي مدى نجح ديكارت في تأسيس نظرية أخلاقية عقلانية تجعل من العقل والإرادة الحرة أساساً للفعل الأخلاقي، مع الحفاظ على التوازن بين مُتطلبات العقل وتأثير الانفعالات في السلوك الإنساني؟

2. الخلفية الفلسفية للأخلاق عند ديكارت:

نشأت فلسفة ديكارت في سياق تاريخي اتسم بأزمات معرفية ودينية وعلمية عميقة، فقد شهدت أوروبا خلال القرنين السادس والسابع عشر تحولات كبيرة، تمثلت في الثورة العلمية والإصلاح الديني، الأمر الذي أدى إلى التشكيك في كثير من المسلمات التقليدية.

في هذا السياق، رأى ديكارت أن بناء فلسفة جديدة يقتضي البدء من أساس يقيني لا يقبل الشك، ومن هنا اعتمد منهج الشك المنهجي، الذي قاده إلى الحقيقة الشهيرة: " أنا أفكر إذن أنا موجود ". وقد شكل هذا المبدأ نقطة الانطلاق نحو بناء نسق فلسفي متكامل، يشمل المعرفة والوجود والأخلاق.

إن الأخلاق عند ديكارت ليست منفصلة عن نظريته في المعرفة، بل ترتبط بها ارتباطا وثيقا. فالإنسان لا يستطيع أن يحسن التصرف، إلا إذا امتلك معرفة صحيحة، ولا يمكن أن تكون المعرفة صحيحة، إلا إذا استندت إلى العقل الواضح والمتميز. لذلك فإن الأخلاق الديكارتية تقوم على أساس معرفي عقلائي، يجعل التفكير السليم شرطا للسلوك القويم.

3- مفهوم الأخلاق عند ديكارت:

يرى ديكارت أن علم الأخلاق هي العلم الذي يوجه الإنسان نحو الخير والسعادة، وهي تعتمد على استعمال العقل استعمالا صحيحا، لأن العقل في نظره هو أعظم ما يميز الإنسان عن غيره من الكائنات. فالإنسان الأخلاقي هو الذي يتحكم في أفعاله بناء على التفكير العقلاني الواعي، لا على الانفعالات والشهوات. ويؤكد ديكارت أن الأخلاق لا تقوم على العادات والتقاليد فقط، بل يجب أن تكون مبنية على أسس عقلية واضحة، لذلك حاول أن يجعل الأخلاق شبيهة بالرياضيات، من حيث الوضوح والدقة، بحيث يستطيع الإنسان أن يميز بين الخير والشر اعتمادا على العقل.

كما يرى أن الغاية الأساسية للأخلاق هي الوصول للسعادة والطمأنينة الداخلية، وهذه السعادة لا تتحقق بالمال أو اللذات الحسية، بل تتحقق عندما يعيش الإنسان وفق الفضيلة والعقل. وعليه يكون خير ما يمكن للإنسان أن يفعله هو أن يحسن استعمال عقله، أساس السلوك الأخلاقي السليم. يقول ديكارت: " ومن أجل أن تمتلك نفسنا ما يرضيها ويكفيها فهي لا تحتاج إلا إلى إتباع الفضيلة بالضبط. ذلك أن من عاش دون أي توبيخ على الإطلاق من ضميره بأنه قد تخلف مرة عن عمل كل الأشياء التي اعتقد بأنها الأفضل (وهذا ما أسميه هنا إتباع الفضيلة) فإنه يتلقى بالمقابل رضا على درجة من القوة تجعله سعيدا وتجعل أعنف جهود الانفعالات لا تملك ما يكفي من مقدرة لإزعاج هدوء نفسه." (رونييه ديكارت، 1413-1993، ص 91)

3-1- العلاقة بين العقل والأخلاق:

يحتل العقل مكانة مركزية في فلسفة ديكارت الأخلاقية، فقد كان يؤمن بأن العقل قادر على توجيه الإنسان نحو الخير، إذا استعمل بطريقة سليمة، ولذلك اعتبر أن الخطأ الأخلاقي لا ينتج عن ضعف العقل، بل عن سوء استعمال الإرادة.

الأخلاق عند ديكارت

و يؤكد ديكارت أن الإنسان يمتلك إرادة حرة تمكنه من الاختيار بين الخير والشر، لكن هذه الإرادة يجب أن تخضع للعقل، حتى لا يقع الإنسان فريسة الخطأ. فإذا اتبع الإنسان أهواءه دون تفكير أصبح أسيرا للانفعالات ووقع عندئذ في الرذائل بسهولة، أما إذا استخدم عقله فإنه يستطيع التحكم في نفسه واتخاذ القرارات الصحيحة. ومن هنا تظهر أهمية التربية العقلية عند ديكارت، لأن الإنسان يحتاج إلى تعلم التفكير السليم، حتى يستطيع بناء حياة أخلاقية مُستقرة.

4- مكانة الأخلاق في النسق الفلسفي الديكارتي:

شبه ديكارت الفلسفة بشجرة تتكون من ثلاثة أجزاء رئيسية هي:

1- الجذور وتُمثل الميتافيزيقا، 2- الجذع وتُمثل الفيزياء، 3- الأغصان والثمار

وتُمثل العلوم التطبيقية، وعلى رأسها الأخلاق.

و يكشف هذا التشبيه عن المكانة المتميزة التي تحتلها الأخلاق في فلسفته، إذ أنها تُمثل الثمرة النهائية لجميع المعارف. فالفلسفة ليست مُجرد تأمل نظري، بل وسيلة لتحقيق حياة أفضل وأكثر سعادة، لأن العمل في الفلسفة هو الغرض الأسمى. فمثل الفلسفة، بالنسبة إليه، " كمثل شجرة جذورها الميتافيزيقا، جذعها العلم الطبيعي وفروعها بقية العلوم التي ترجع إلى ثلاثة علوم كبرى هي: الطب، الميكانيكا والأخلاق. " (رونييه ديكارت، 1985، ص 35-36).

و يرى ديكارت أن الحكمة الحقيقية تتمثل في القدرة على استخدام المعرفة من أجل توجيه السلوك الإنساني توجيهها صحيحا، ومن ثمة فإن الأخلاق تُشكل الغاية العملية للمشروع الفلسفي الديكارتي بأكمله.

يتحدث ويقول ديكارت في القاعدة الأولى من قواعد العقل في كتابه قواعد لتوجيه العقل : " إن كل ما يجب الاعتقاد به هو أن كل العلوم مشدودة إلى بعضها بعض، إلى درجة أنها يجب أن تكون مُرتبطة فيما بينها، ولا يستقل أحدها عن الآخر، مُكونة بذلك كُلا. إن هذه الوحدة الأساسية لا يجب مُطلقا إغفالها ولو لمُجرد لحظة، بل وأن أيا كان إذا ما فهمها بطريقة صحيحة وجيدة، يستطيع أن يكون على يقين من أنه استطاع أن يُحقق تطورا ملحوظا، فيما يتعلق بفهم الطبيعة، وهذا ما لا يستطيع انجازه أبدا من يبقى في مجال واحد. " (رونييه ديكارت،

2001، ص 30.) (E. Denissoff, 1970, P 97.)

و يُضيف الفيلسوف قائلا في القاعدة السادسة من قواعد توجيه الفكر ما يلي: " كل الأشياء يُمكن أن تنظم في شكل سلسلة، دون أن يكون ذلك بسبب ربطها إلى نمط مُعين من الوجود كما فعل الفلاسفة الذين صنفوها ضمن أنواعها، ولكن السبب راجع إلى أنها يُمكن أن تعرف بعضها من خلال البعض الآخر. " (رونية ديكارت، 2001، ص 49).

5- الأخلاق المؤقتة عند ديكارت:

أثناء تطبيقه لمنهج الشك، وجد ديكارت نفسه بحاجة إلى قواعد عملية تُوجه حياته اليومية أثناء الشك قبل الوصول إلى المعرفة اليقينية الكاملة، ومن هنا وضع ما سماه بالأخلاق المؤقتة (La morale provisoire) التي قدم لنا ديكارت من خلالها منهجه في الحياة، الذي كان أساس نجاة كل إنسان لم يستطع أن يبدأ، في فلسفته، إلا وهو شك.

يستعرض ديكارت قواعد أخلاقه المؤقتة في كتابه مقال عن المنهج، وقد تضمنت هذه الأخلاق عدة قواعد أساسية، يقول عنها: " ولكي لا أحرم نفسي مُنذ الآن من أسعد حياة أقدر عليها، فإنني وضعت لنفسي قواعد للأخلاق مؤقتة لا تشمل إلا على ثلاث حكم أو أربع أدلي إليكم بها." (رونية ديكارت، 1985، ص 198).

أولها: احترام القوانين والعادات: حيث دعا ديكارت من خلالها إلى الالتزام بقوانين المجتمع وعاداته المعتدلة مادام الإنسان لم يصل بعد إلى يقين عقلي كامل يُمكنه من الحكم المُستقل، وهو في ذلك يقول: " الأولى أن أطيع قوانين بلادي وعوائدها، مع ثبات في محافظتي على الديانة التي أنعم الله علي بأن نشأت فيها مُنذ طفولتي." (رونية ديكارت، 1985، ص ص 199-200).

ثانيا: الثبات في اتخاذ القرار : وعن ذلك يكتب قائلا: " وكانت حكمتي الثانية أن أكون أكثر ما أستطيع جزما وتصميما في أعمالي." (رونية ديكارت، 1985، ص 200). مادام التردد المُستمر فيما يعتقد الفيلسوف، أسوأ من اتخاذ قرار قد يكون غير كامل، لأن الحياة العملية تتطلب الحسم والعمل.

ثالثا: السيطرة على الذات: حيث يؤكد الفيلسوف أن الإنسان وإن كان لا يستطيع التحكم في العالم الخارجي، إلا أنه يستطيع التحكم في أفكاره ورغباته. وحول ذلك يكتب قائلا: " وكانت حكمتي الثالثة أن أجتهد دائما في أن أغلب نفسي لا أن أغلب الحظ، وأن أغبر رغباتي لا أن أغبر نظام العالم..." (رونية ديكارت، 1985، ص 202).

رابعاً: تكريس الحياة للبحث عن الحقيقة: حيث رأى ديكارت أن السعي إلى المعرفة يُمثل أفضل استخدام لقدرات الإنسان العقلية، فقال: " ... فكرت في أنني لا أقدر على خير من أن أستمّر في نفس ذلك الشغل الذي كنت فيه، أي على أن أنفق كل حياتي في تثقيف عقلي، وفي التقدم على قدر ما أستطيع..." (رونييه ديكارت، 1985، ص 204). وتُظهر هذه القواعد أن الأخلاق المؤقتة لم تكن مجرد حل عملي مؤقت، بل شكلت نواة مهمة لفلسفته الأخلاقية اللاحقة، تلك الفلسفة التي جعلت العقل أساس الأخلاق الفعالة والمُفيدة، كما أرادها ديكارت.

6- العقل كأساس للأخلاق:

تتأسس الأخلاق عند ديكارت على الإرادة الحرة والعقل معاً، لكن ديكارت يُقدم الإرادة على العقل، تبعاً للمذهب الإرادي (Volontarisme) ، الذي ورثه من عند المدرسين (Scolastique)، وفي مُقدمتهم دانس سكوت الفيلسوف واللاهوتي الاسكتلندي (John Duns Scotus) حوالي (1266- 1308 م) ، حيث يرى أن العقل محدود ومُتناهٍ فينا، بالعكس إرادتنا لا مُتناهية، وهي القاسم المُشترك بيننا وبين الله، لأنها الجزء الإلهي فينا. ولأجل ذلك فإن الإرادة تسبق العقل دائماً، أي تذهب لتلقائية وسرعة شديدة للفعل، ولا تنتظر حُكم العقل، أي أنها تتركز أثناء الفعل على الأفكار الغامضة والمُهمّة، وليس على الأفكار الواضحة والمُتميزة، التي يُرشدها العقل وحده إليها. وهنا بالذات تقع في الخطأ، فإذا كان الفعل مُتعلقاً بالمعرفة، وقعت في الخطأ في مجال المعرفة، أما إذا تعلق الفعل بالأخلاق، فإنها ستقع في الخطأ في مجال الأخلاق، أي في الرذيلة.

و الإرادة عند ديكارت صنفان، حيث يكتب قائلاً: " مرة أخرى إن إرادتنا على صنفين، لأن بعضها هي أفعال للنفس تنتهي في النفس ذاتها، كما حين نود أن نُحب الله، أو بشكل عام أن نشغل فكرنا بموضوع غير مادي على الإطلاق. أما البعض الآخر فهو أفعال تنتهي في جسمنا، كما حين تكون كل إرادتنا أن نتنزّه، فإنه يتبع ذلك أن سيقاننا تتحرك وأننا نسير." (رنيه ديكارت، 1413هـ- 1993م، ص ص 24- 25)

يربط ديكارت الأخلاق بالعقل بقوة، فإذا كانت الإرادة تقوم على المعرفة الواضحة والمُتميزة للعقل (وهي الأفكار الفطرية)، فإننا لن نفعل إلا الفضيلة والخير فقط، بالعكس إذا اعتمدت الإرادة أثناء فعلها على المعرفة الغامضة والمُهمّة للعقل (والتي يكون مصدرها الحواس والمُخيلة)، فإنها ستقع في الرذيلة والشر بالضرورة. لهذا فالفضيلة تكمن عند ديكارت في تربية الإرادة وخُضوعها للعقل، أي إتباع أفكاره الواضحة والمُتميزة في كل فعل من أفعالها. فيكون ديكارت بذلك قد أعاد الربط بقوة بين الأخلاق والمعرفة، أي بين الفعل الأخلاقي والعقل.

و نستنتج بذلك أن مكانة العقل المركزية في فلسفة ديكارت الأخلاقية واضحة، وكيف لا والإنسان يتميز عن سائر الكائنات بامتلاكه القدرة على التفكير والحكم. ويؤكد ديكارت أن الخير لا يُمكن إدراكه إلا بواسطة العقل، فالعواطف والانفعالات قد تقود الإنسان إلى الخطأ، بينما يُساعده العقل على التمييز بين الخير والشر.

و يقوم السلوك الأخلاقي عنده على ثلاث عناصر أساسية مترابطة:

المعرفة الصحيحة، الحكم العقلي السليم والإرادة الحرة، فكلما ازدادت معرفة الإنسان بالحقيقة، أصبح أكثر قدرة على اتخاذ قرارات أخلاقية سليمة، وكلما زادت معرفته العقلية بالخير أو الفضيلة كان فعله الأخلاقي صحيحا.

6-1- الإرادة والحرة في فلسفة ديكارت:

تُمثل الحرية أحد المحاور الأساسية في الأخلاق الديكارتية، ويرى ديكارت أن الإنسان " يمتلك إرادة حرة بطبيعتها، حتى أنه لا يُمكن لأحد أن يُمارس معها الإكراه على الإطلاق ". (رنيه ديكارت، 1993م - 1413هـ، ص 34) وهذه الإرادة تجعله مسئولاً عن أفعاله، فالإنسان في نظره كائن حر يمتلك القدرة على الاختيار، وهذه الحرية هي التي تجعل الإنسان مسؤولاً عن أفعاله.

و تتمثل الحرية الحقيقية في قدرة الإنسان على إتباع ما يُمليه عليه العقل، لا ما تفرضه عليه الأهواء والانفعالات. فكلما ازداد الإنسان معرفة بالحقيقة أصبح أكثر حرية، لأن الجهل يؤدي إلى الوقوع في الأخطاء. ولهذا ربط ديكارت بين الحرية والعقل، واعتبر أن الإنسان الحر هو الإنسان العاقل.

و يُفرق ديكارت بين نوعين من الحرية: الحرية السلبية، وهي غياب الإكراه الخارجي، والحرية الإيجابية وهي قدرة الإنسان على اختيار ما يُدركه العقل باعتباره خيرا. ومن هذا المنطلق تصبح الحرية مُرتبطة بالمعرفة، إذ أن الجهل يُقيد الإنسان، بينما تُحرره المعرفة.

7- نظرية الانفعالات والأهواء:

عند معرفة الذات، فلن نعرف فقط ماهيتها وأجزائها، ولكن أيضا الجانب اللاعقل فينا، وهو انفعالاتنا ورغباتنا، والتي تُعبر عن اتحاد النفس بالبدن، وهذه الانفعالات هي المصدر الأساسي لكل ردائنا، والتحكم فيها هو الذي يرفعنا إلى مُستوى الفضيلة. لذلك فالفضيلة عند ديكارت تكمن في قدرة النفس على السيطرة على الانفعالات وإخضاعها للعقل. لهذا فإن دراسة الانفعالات وطبيعتها وأنواعها والطريقة التي يستطيع العقل السيطرة عليها من خلالها، هي التي ستمكن من بناء فلسفة أخلاق صلبة عنده.

وتقوم الثنائية الديكارتية بدور كبير في فلسفته عموماً، وفي فلسفة الأخلاق خصوصاً، لأنها تُبين أن الانفعالات نوعان: جزء منها يأتي من الجسد، فتُعبّر بذلك عن إتحاد النفس والبدن، ونوع آخر يصدر من العقل فحسب. وبالنسبة إلى الانفعالات الجسدية، يُمكن أن نتعامل معها بطريقتين: إما الاستجابة لها بحد معقول، وهنا لن تؤدي إلى الرذيلة، بالعكس هذا ما يجب القيام به، لأنها انفعالات طبيعية في الإنسان، وإما الانسياق وراءها والاستجابة لها دون حدود، والجري من لذة حسية إلى لذة حسية أخرى دون توقف، وهنا سنقع في الرذائل لامحالة. والعقل هو فقط من يُعطينا القدرة على السيطرة عليها وتحقيقها بحد محدود ومعقول. أما الانفعالات العقلية، والتي تكمن في معرفة الحقيقة والشعور بالسعادة التامة بمعرفة الحقيقة فهي نوع من الانفعالات التي لا يصل إليها إلا الفلاسفة الحقيقيون، وهي الانفعالات التي يُعول عليها ديكارت كثيراً.

تناول ديكارت موضوع الانفعالات بصورة موسعة في كتابه انفعالات النفس. وقد حاول فيه تفسير العلاقة بين النفس والجسد وتأثيرها في السلوك الإنساني. ويُعرف ديكارت مجموع الانفعالات بكونها عبارة عن " إدراكات أو إحساسات أو تأثيرات للنفس، تُنسب بشكل خاص للنفس لا لغيرها، والتي تُسببها وتُغذيها وتُقويها حركة معينة للأرواح". (رونيه ديكارت، 1993م- 1413هـ، ص 28)

ولعل هذا التعريف شبيه بذلك الذي قدمه ديكارت في رسالته للأميرة إليزابيث في 06 أكتوبر، 1645 حيث يقول فيها: " نُسمي الانفعالات كل الأفكار التي تهيّج في النفس، دون مُساعدة من إرادتها، من خلال الانطباعات وحدها الموجودة في الدماغ." (René Descartes, 06 Octobre 1645, P102.)

و في نفس السياق يُضيف ديكارت قائلاً: " يُطلق إسم الانفعالات عادة على الأفكار الناتجة عن بعض اضطرابات الأرواح الخاصة ". (Descartes, 06 Octobre 1645, P 102.)

و الانفعالات فيما يرى ديكارت، علامة طبيعية على نشاط الجسم وحيويته وتأثره بالأشياء التي تُحيط به، لكنها تُربك النفس. ويُشير الفيلسوف إلى خطورتها، خاصة إذا تجاوزت حدودها الطبيعية والمعقولة، أين تُصبح مُعيقة للإنسان في مُختلف مساعيه العلمية والأخلاقية.

و من أهم الانفعالات التي درسها ديكارت نذكر: الفرح، الحزن، الحب، الكراهية، الرغبة والدهشة. ولا يعتبر ديكارت الانفعالات شراً في ذاتها، بل يرى أنها ظواهر طبيعية يُمكن أن تكون نافعة كما ذكرنا ذلك سابقاً وتكون مُساعدة للإنسان على التكيف مع الحياة، إذا خضعت لتوجيه العقل، ولكن إذا ما سيطرت الانفعالات على العقل،

قد تدفع الإنسان إلى اتخاذ قرارات خاطئة. والإنسان الحكيم في نظره هو الذي يعرف كيف يُوازن بين عواطفه وعقله.

و حتى لا يُضعف ديكارت من عزيمة أي شخص، مهما كان، فإنه يؤكد في كتاب الانفعالات قائلا: " ليس هناك من نفس ضعيفة، إلى درجة أنها لا تستطيع أن تكتسب سلطة مُطلقة على الانفعالات، لو تصرفت تصرفا جيدا." (رونييه ديكارت، 1413هـ- 1993 م، ص 40).

و يُضيف ديكارت مُوضحا: " وما أسميه أسلحتها الخاصة بها- أي بالنفس- هو الأحكام القاطعة والحازمة المتعلقة بمعرفة الخير والشر، التي كانت النفس قد صممت على إتباعها في أعمال حياتها." (رونييه ديكارت، 1993م- 1413هـ، ص 39).

و لعل كتاب انفعالات النفس هو خير ما وضعه ديكارت ليُعلمنا من خلاله فن التعامل مع انفعالاتنا، حتى نسوُملستوى العمل العقلي الفاضل.

8- فضيلة السيطرة على الذات:

تُعد السيطرة على الذات من أهم الفضائل في الأخلاق الديكارتية، فالإنسان الفاضل هو الذي يستطيع التحكم في رغباته، ضبط انفعالاته وتوجيه سلوكه وفقا للعقل.

ترتبط هذه الفضيلة بفكرة الاستقلال الداخلي، حيث يُصبح الإنسان بفضله أقل خضوعا للظروف الخارجية وأكثر قُدرة على تحقيق التوازن النفسي. فلكي أكون سعيدا، في نظر ديكارت، يجب أن أحاول تغيير رغباتي، أكثر من تغيير نظام العالم ومُحاولة التحكم في الأمور الخارجة عن إرادتنا، فليس هناك شيء نملكه تماما سوى أفكارنا وإرادتنا، وهي أهم فكرة اشتهر بها ديكارت في مجال التأكيد على الحرية الداخلية والمسؤولية الفردية. "فالإنسان لا يملك حقا سوى أفكاره وإرادته، ولعل الإرادة الحرة في نظر ديكارت هي أشرف وأنبلى شيء يُمكن أن يُوجد في الإنسان، ومنها فقط تنبثق أكبر سعادتنا " (George Touchard, 1898, PP 30-31).

8-1- السعادة عند ديكارت:

تُشكل السعادة غاية الأخلاق عند ديكارت، إلا أنه لا يفهمها باعتبارها مُجرد لذة حسية أو إشباع للرغبات. بل يرى أن السعادة الحقيقية تتمثل في: راحة الضمير، الرضا الداخلي والانسجام بين العقل والإرادة. ويتحقق ذلك عندما يلتزم الإنسان بما يراه عقله خيرا ويُؤدي واجباته بأفضل صورة مُمكنة. وتبعاً لذلك ارتبطت

الأخلاق عند ديكارت

الفضيلة عند ديكارت بقوة الإرادة وحُسن استخدام العقل، فالإنسان الفاضل هو الذي يعرف الخير ويتبعه بإرادة ثابتة. ولا ترتبط الفضيلة بالمظاهر الخارجية أو الثروة، بل بقدرة الإنسان على التحكم في ذاته.

و يؤكد ديكارت أن أعظم الفضائل هي الحكمة، لأنها تُساعد الإنسان على التمييز بين الأمور النافعة والضارة. كما يرى أن الشجاعة وضبط النفس والاعتدال هي من الصفات الأساسية للحياة الأخلاقية. وقد تأثر ديكارت في هذا الجانب بالفلسفة الرواقية التي كانت تدعو إلى التحكم في الانفعالات وعدم الاستسلام للعواطف القوية.

و إذا كانت الأخلاق المؤقتة عند ديكارت تقوم على أساس احترام أخلاق وأعراف مُجتمعه والامتثال لها أثناء الشك، فإن الأخلاق النهائية تقوم على العيش وفق العقل، متأثراً في ذلك بالرواقيين، كما سبق وأن ذكرنا، هذه الأخلاق التي سيرتكن إليها بعد خروجه من تجربة الشك. فكان ديكارت جد عقلاني في تعامله مع الأخلاق، ظاهراً وباطناً، حتى وهو غارق في شكه المُطلق.

2-8- مفهوم السخاء وأهميته الأخلاقية:

يُعد مفهوم " السخاء " من أكثر المفاهيم أصالة في الأخلاق الديكارتية، ويقصد به: معرفة الإنسان لقيمته الحقيقية، وثقته بقدرته على استخدام إرادته استخداماً صحيحاً، واحترامه للآخرين بوصفهم كائنات عاقلة وحرّة. ويُمثل السخاء أساس الفضائل الأخرى لأنه يجمع بين احترام الذات، واحترام الغير.

ولعل السخاء في فلسفة ديكارت يُمثل وعي الإنسان بمفهوم الحرية أولاً، والعزم على استخدامها بشكل عاقل ثانياً، وهذا الوعي يمنح الإنسان استقلالاً عاطفياً وفكرياً عن تقلبات الحظ والعالم الخارجي، وهذا الاستقلال هو الذي يُثمر السعادة والسكينة النفسية التي لا تهتز.

9- العلاقة بين الأخلاق والدين:

لم تكن فلسفة ديكارت الأخلاقية مُعادية للدين، بل حاولت التوفيق بين العقل والإيمان. فقد كانت تقوم على أساس العيش وفق العقل من جهة، كما قلنا ذلك سابقاً، وعلى أساس الرجوع للدين من جهة أخرى، أي للإيمان بالله وطاعته ومحبته، متأثراً في ذلك بالعقيدة المسيحية، لأن ديكارت رجل مُؤمن، ظل مسيحياً مُخلصاً طوال حياته، يُكن كل الاحترام والتقدير للدين المسيحي ولأخلاقه، لهذا ففيما يتعلق بمسائل الدين المسيحي من مُعتقدات وأخلاق، ظل ديكارت في جانب كبير من فكره تقليدياً.

حيث يؤمن ديكارت بوجود الله، ويرى أن الله الكامل لا يمكن أن يكون مصدرا للخداع، ومن ثمة فإن القيم الأخلاقية تنسجم مع النظام الإلهي للعالم، غير أن الإنسان يصل إليها من خلال العقل الذي وهبه الله له إضافة إلى الأخلاق المسيحية ذات المصدر الديني التي لا تتعارض أبدا مع الأخلاق العقلية.

لذلك فمهما كان ديكارت فيلسوفا عقلانيا، وشيد أخلاقه على أسس عقلانية مميزة، تابعة لمذهبه العقلاني الخالص، إلا أنه في أخلاقه النهائية أضاف إليها أسسا أخرى دينية، والنتيجة عن عقيدته المسيحية، لهذا فإنه يظل من ناحية من النواحي وريث فلسفة الأخلاق المدرسية، التي تمزج بين أسس العقل وأسس الإيمان في بنائها للأخلاق.

10- قيمة الفلسفة الأخلاقية الديكارتية:

أما عن تأثير الأخلاق الديكارتية في الفلسفة الحديثة، فقد كان لهذه الأخيرة تأثير كبير في تطور الفكر الحديث، حيث مهدت الطريق لعدة اتجاهات فلسفية منها سيينوزا (1632 - 1677 م) الذي استفاد من تحليل الانفعالات وبنى عليه نظريته الأخلاقية الخاصة، أيضا ليبنتز (1646- 1716 م) الذي طور فكرة العقلانية الأخلاقية وكانط (1724- 1804م) الذي تأثر بمفهوم الاستقلال الذاتي للإرادة وإن اختلف مع ديكارت في كثير من التفاصيل.

كما ساهمت الأخلاق الديكارتية في ترسيخ فكرة المسؤولية الفردية التي ستظهر كثيرا مع الفلسفة المعاصرة خاصة مع هيدجر (Martin Heidegger) (1889- 1976 م) وسارتر (Jean-Paul Sartre) (1905- 1980 م)، والاعتماد على العقل في الحكم الأخلاقي.

لكن، ورغم أهمية ومكانة فلسفة الأخلاق عند ديكارت فإنها تعرضت لعدة انتقادات. حيث وجد بعض النقاد أن ديكارت أعطى للعقل في الأخلاق دورا أكبر مما يستحق، وأهمل الأبعاد العاطفية والاجتماعية للسلوك الأخلاقي. كما ركزت على الفرد أكثر من تركيزها على المجتمع والعلاقات الإنسانية. كما أثارت نظريته الثنائية (ثنائية الجسد والروح) صعوبات عديدة، فيما يتعلق بتفسير تأثير العقل في الانفعالات الجسدية. ومع ذلك تبقى فلسفته من أهم المحاولات لتأسيس أخلاق حديثة على أسس عقلانية جديدة.

10-1- القيمة المعاصرة للأخلاق الديكارتية:

لا تزال أفكار ديكارت الأخلاقية تحتفظ بأهميتها في العصر الحديث والمعاصر، ففي زمن تزداد فيه التحديات الأخلاقية الناتجة عن التطور العلمي والتكنولوجي، تبرز الحاجة إلى:

التفكير النقدي، المسؤولية الفردية والتحكم في الانفعالات لاتخاذ القرارات بناء على العقل، حيث كانت هذه العناصر الأربعة المهمة في فلسفة ديكارت الأخلاقية مصدرا أساسيا للإلهام الأخلاقي المعاصر.

ليتضح لنا من خلال هذه الدراسة أن الأخلاق تحتل مكانة مركزية في فلسفة ديكارت، وأنها تمثل الغاية النهائية لمشروعه الفلسفي بأكمله. فقد سعى إلى بناء أخلاق عقلانية، تقوم على المعرفة الواضحة والإرادة الحرة والسيطرة على الانفعالات، وترمي إلى تحقيق السعادة الحقيقية من خلال الانسجام بين العقل والسلوك.

كما أن تحليله للحرية والإرادة والانفعالات أسهم في إرساء أسس جديدة للفكر الأخلاقي الحديث، وأثر بصورة عميقة في العديد من الفلاسفة الذين جاؤوا بعده. ورغم ما وُجه إلى فلسفته من انتقادات، إلا أنها تظل محطة أساسية في تاريخ الأخلاق الفلسفية، ونموذجا بارزا لمحاولة تأسيس السلوك الإنساني على مبادئ عقلية راسخة.

11. خاتمة:

خلصت هذه الدراسة إلى أن الأخلاق عند ديكارت ليست مبحثا ثانويا في نسقه الفلسفي، بل تمثل الغاية العملية التي تتوج مشروعه القائم على تأسيس المعرفة اليقينية. فقد أقام تصوره الأخلاقي على مركزية العقل، وجعل من الإرادة الحرة أساسا للمسؤولية الأخلاقية، كما دعا إلى إخضاع الانفعالات لتوجيه العقل بما يحقق التوازن النفسي والسعادة الحقيقية. وبهذا المعنى، تتأسس الفضيلة عنده على حُسن استعمال الإرادة في ضوء المعرفة الواضحة والمتميزة، لا على الامتثال الأعمى للعادات أو الخضوع للأهواء.

كما أظهرت الدراسة أن الأخلاق الديكارتية، رغم ما وُجه إليها من انتقادات بسبب تركيزها على البُعد العقلي وإغفالها النسبي للأبعاد الاجتماعية والعاطفية، قد أسهمت إسهاما بارزا في ترسيخ معالم الأخلاق العقلانية في الفلسفة الحديثة، ومهدت الطريق أمام تطورات لاحقة في الفكر الأخلاقي، ولاسيما في فلسفات سبينوزا وكانط كما سبق وأن ذكرنا.

و عليه، فإن قيمة الأخلاق عند ديكارت لا تكمن فقط في بُعدها التاريخي، وإنما أيضا في قُدرتها على إثارة أسئلة فلسفية ما تزال راهنة، تتعلق بطبيعة الحرية، وحُدود الإرادة، ودور العقل في توجيه السلوك الإنساني. ومن ثمة، تظل فلسفته الأخلاقية مجالا خصبا للبحث والنقد، بما تُسهم به من تعميق فهم العلاقة بين المعرفة والعمل، وبين التفكير النظري والممارسة الأخلاقية. وتدعو هذه النتائج إلى إعادة قراءة التصور الأخلاقي الديكارتية في ضوء الإشكالات الأخلاقية المعاصرة، خاصة ما يتعلق بأخلاقيات العلم والتكنولوجيا والذكاء الاصطناعي.

12. قائمة المصادر والمراجع:

باللغة العربية:

- 1- رنيه ديكارت. إنفعالات النفس. ترجمة وتقديم وتعليق جورج زيناتي. بيروت - لبنان، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، 1413هـ - 1993م.
- 2- رنيه ديكارت. مقال عن المنهج. ترجمة محمود محمد الخضير، مراجعة وتقديم الدكتور محمد مصطفى حلمي. الهيئة المصرية للكتاب، الطبعة الثالثة، 1985.
- 3- رنيه ديكارت. قواعد لتوجيه الفكر. ترجمة وتقديم سفيان سعد الله. تونس، سراس للنشر، 2001.

باللغة الأجنبية:

- 1-Descartes René. *Lettre sur la morale, correspondances avec la princesse Elisabeth, Chanut, et la reine Christine*. Texte revue et présentée par Jaques Chevalier. Paris, Bovin et C^{ie}, éditeurs.
- 2-E.Denissoff. *Descartes, premier théoricien de la physique mathématique*. Paris, VI^e, édition Béatrice- Nauwelaerts, publication universitaires de Louvain, 1970.
- 3-Georges Touchard. *La Morale de Descartes*. Paris, Ernest Leroux, éditeur, 1998.